

حديث في سنة ١٩٠٥

المانيا وانكلترا - ألمانيا والنمسا

نشر المتر جراندي احد مشاهير ادباء الانكليز مقالة في مجلة القرن التاسع عشر لغرض فيها حديثاً سياسياً جرى بينه وبين نبيل نموي كانت مكرتيراً لفارة دولته في احدى عواصم اوربا سنة ١٩٠٥ وقدم لها مقدمة قال فيها : كنت انوي نشر هذا الحديث في حينه ولكنني رايت قبل ذلك ان استأذن صاحبه في نشره قال لي بالتمام لا اسمع لك بشرو ما دمت حياً . ذلك لانه انكليزي النيل ولانه اطلق لنفسه العنان في حديثه وبالغ في الصراحة . وفي سنة ١٩١٢ علمت انه مات فاسجيت ظلياً فعمدت الى مذكورة كنت قد دونت فيها الحديث ووضعتها حيث لم اسمعها منذ سنة ١٩٠٥ . وكان موضوع الحديث سلوك ألمانيا مع انكلترا وعلاقتها بالنمسا فوجدت في المذكرة ما يأتي . قال محدثي :

« تسألني هل اعرف برلين . نعم اني اعرفها لاني كنت من موظفي سفارتنا فيها في اوائل عهدي بالخدمة السياسية . وصادقت كثيرين من اهلها وكنت ازورهم آتاً بعد آن . ولا انكر ان النموسيين من اهل الطبقة الدنيا قلما يصادقون البروسيين من اهل ألمانيا حتى انني انا نفسي لا ارى رأي الحياة الحاكمة من اهل برلين ولا اميل ميلها وان كنت اعرفها تمام المعرفة . فان النبيل البروسي يختلف كل الاختلاف عن النبيل النموي وفيه اشياء كثيرة تفهمها واشياء اخرى لا تفهمها وكثير من هذا وذاك نقتضيه . وانتم الانكليز تظنون ان ألمانيا امبراطورية مطلقة الحكم للإمبراطور اليد العليا فيها . ولا ينكر ان في ألمانيا من الحكم المطلق ما ليس في روسيا لان نظام البيروقراطية (١) ليس مستحكماً فيها استحكماً في روسيا (٢) . ولكن نبلا ، بروسيا والبيروقراطية الألمانية قوة كافية لابطال كل عمل يريد الامبراطور عمله ولا يوافقون عليه . ومع ذلك فان تبعية النبلا ، لدولة هو هنزلون تبعية حقيقية لا ريب فيها . فالنتيجة توازن القوتين

وتسألني من مداومة هذا الوضع . فانه يجب اني عسرت كثيرين من الانكليز وخصوصاً موظفي السفارات ولكنني لم ار واحداً منهم فهم هذه المسئلة حتى فهمها . فانكم انتم الانكليز سكان جزيرة ومبالغون في العزلة بالطبع رغم انتشاركم في جميع جوارب

(١) أي الحكومة التي ديارها مستقلة بعضها عن بعض

(٢) هذا ما ورد في المذكور ولكني لا ارى وجه حصص معنى من المعالي

الأرض . وعندكم أنكم إذا كنتم غرضاً لشيء فأنتم كل الغرض فذلك تزعمون أن
عداوة المانيا لكم هي الغرض الاسي لسياسة الالمانية الحديثة . اما نحن التسويين فنعم ان
الامر ليس كذلك ولكن يظهر لي ان لا امل في اقناعكم بغير ما تعتقدون من هذا القبيل .
وربما كان سبب عجزني عن ذلك صعوبة بسط هذه المسئلة المعقدة ولكن لا بأس بسطها
على قدر المستطاع

في سياسة المانيا الداخلية ثلاثة عناصر: عنصر النبلاء اصحاب الاملاك . وعنصر
التجار واصحاب المعامل ورؤوس الاموال ومعظمهم يهود . وعنصر العمال وخصوصاً اهل
المقاطعات الوسطى والغربية . ورب سائل يسأل وما شأن ملوك البلاد الالمانية الاخرى
غير روسيا ونبلاء المانيا الجنوبية . اما عن الاول فاقول ان حرب سنة ١٨٦٦ أرث ملوك
المانيا وامراءها منازلهم . واما عن الثاني فاقول ان مطامح اعيان الجنوب في المانيا اجتماعية
اكثر منها سياسية . وقد كان هوام منا منذ خمسين سنة او اقل اما الآن فلوح لم النسا
امبراطورية مضغمة الحال مشرفة على اغراب فيميلون الى القوي عن الضيف ويمكن
حسينهم بين مويدي اريكة هوهنزلرت وسياستها كالنبلاء مادامت هذه السياسة
تؤيد سيادة الطبقات العليا

اما من حيث خلافة النبلاء الالمان بكم فاقول انهم لا يرومون حكمكم كانهودرون بل
يرومون حكم المانيا ولا شأن لكم لديهم الا حيث تهتدون ذلك الحكم . نقول لي وما هي
خلافة الحكم في المانيا بعداوة انكلترا . فاجيب انه يمسر عليك ان توضح مسئلة رجل يملها
ولاسيما اذا كان يعتقد انه يملها . خذ المانيا قبل سنة ١٨٦٦ او سنة ١٨٧٠ تجد ان حركتها
تجارية لم تكن قد بدأت وان تجارتها الاجنبية كانت حقيرة وهي فتيرة . لكن قابلية التقدم
والارتقاء كانت هناك لان نظام التعليم متين مبني على العقل ولاغنى لتقدم البلاد الفعلي عن
اتحادها السياسي ليكون التاجر من اهلها اميناً على حقوقه التجارية في البلاد الاجنبية . وقد
يجب الانكليز الذين قرأوا تاريخ المانيا قبل سنة ١٨٦٦ كيف ان ممالك المانيا واماراتها
الجنوبية التي كانت حينئذ تفتت بروسيا والبروسيين اعطتها قيادها بعد سنة ١٨٧٠ ومشت
في اثرها صاغرة . وبيان ذلك ان خوف بروسيا كان يملأ قلبها ثم تبدل ذلك الخوف مصلحة .
سل المانيا من الجنوب كيف يرضى ان يتقاد الى بروسيا . فان كان من ورتمبرج مثلاً اجابك
بما ملخصه : « انا من ورتمبرج . وكنت قبل سنة ١٨٧٠ اذا تاجرت مع بلد اجنبي وقام بيني

وبين احد من اهلر خلاف التجأت الى حكومة بلادي الصغيرة اما الآن فارى ورائي
امبراطورية المانيا يومتها وشتان بين الاثنين

اشرت في كلامي الى نظام التعليم في المانيا . واقول في شرحه ان الالماني يتي جميع
اعماله على مقتضى العقل والحاجة وبالع في ذلك كل المبالغة فيعطي العالم لعلميا نظريا
والعامل تعليم فية علميا . اما انتم الانكليز فقد اخبرني اخي وكان من موطني سفارتنا في لندن
ان على رأس نظامكم التعليمي قوتا من الذين يذهبون مذاهب لا علاقة لها بحقائق هذه
الحياة . فمندكم في طبقة العال مادة بديمة للعمل ولكنكم تربون العامل تربية نظرية اكثر
منها عملية وتكتفون بان تعطوا الذين يشتغلون بادمنتهم تعليميا فية صرفا . والنتيجة ان
تعليمكم النظري واطى كثيرا في صفته لان ٩٩ في المئة من الذين يعملونه لا طاقة لهم على
التقدم فيه . فانهم يعملون امورا نظرية حيث يجب ان يعملوا امورا فية عملية . اما المانيا
فان غاية النظام التعليمي فيها اعداد كل انسان لما خلق له وفطر عليه لتجني الامة
اعظم نفع مستطاع منه . لكن علماءكم يحاولون ان يفسدوا في اذهان الكشبرين
افكارا وآراء لا يطبقها الا اهل الدول الكبيرة . ولست اعلم نتيجة ذلك في بلادكم ولكني
لا اظنها نتيجة صالحة

وقد كانت نتيجة التربية الفنية العملية في المانيا جعل العامل الالماني كفوا فعلا الى
حد يفوق المتعاد . وزاد كفاءته ان اصحاب المعامل الالمانية استخدموا لاصلاح طرق العمل
القديمة واخترع طرق جديدة رجالا ربوا تربية علمية تامة فكانت النتيجة كما كان ينتظر .
ولكن غاب عن الحياة الحاكمة في المانيا قبل تدريب العامل على الاعمال ليخرج تام الكفاءة
ان هذه الكفاءة هي في الغالب ام الضروح الى العلاء لا ينت . فان العامل الالماني اصبح ولام
له الا اصلاح حالته الاقتصادية والمادية والسياسية بين قوم فاستعان بالاشتراكية متخذاً
اباها واسطة البعز تلك الغاية . وقد يجهل الي واليك ان الاشتراكية عبث وطوباطل ولكن
العامّة من الام لقب كل مذهب سياسي سواء كان اشتراكيا او غير اشتراكى بلا بحث ولا
جدل بشرح ان يرى فيه مبيلا ان اصلاح حاله . وان حركة الاشتراكية في المانيا آخذة في
الانتشار بسرعة . وقد افشى انتشارها كما علمت الى خوف شديد في دوائر الحكومة . وليس
هذا الخوف خوف حكومة ابوية تريد خيرا لولا دها ومنعهم من السير في سبل تؤدي بهم الى
البوار بل خوف طبقة حاكمة ترى سيادتها مهددة . وهذه الطبقة سادت سيادة حقيقية لا
شبه له في اوروبا ما خلا روسيا

فهذا الامر في سياسة المانيا هو الذي جعل كثيرين من الانكليز ينظرون اليها بدين الشبهة والقلق اذ صحت اتوال صفكم . وقد مضت سنين كثيرة ولا شغل للبيئة الحاكمة في المانيا الا التئب على هذه الحركة الجمهورية لاضافها سياسياً ان لم تقل اسخنها . فرأى الامبراطور ان لا واسطة لذلك الا ايجاد مصلحة مشتركة بين طبقات المانيا الثلاث لانه لا جامعة حب بينها . ولا ينتظر من الطبقة القبارية ومعظمها من اليهود ومصالحهم سائدة فيها ان يعطوا على حياة حاكمة تاملهم بالامتنان من الوجهة الاجتماعية . ثم ان اهل الطبقة الدنيا يكرهون المتحولين من الطبقة الوسطى نظراً وعملاً والحياة الحاكمة بعيدة عنهم فلا يرونها ولا يعرفونها الا بواسطة اعدائها وآلاتها البوليس الملكي والجاويز العسكري . ولما كانوا لا يحبونها فهم بالتالي لا يحبونها ايضاً

اما المسئلة التي سعت الحياة الحاكمة في حلها فهي كيف تسود الامة بواسطة الامة . ورأت ان انشاء مصلحة مشتركة تربط جميع الطبقات بعضها ببعض واسطة لازمة لبلوغ تلك الغاية . فبذ قرن كان حل مسئلة مثل هذه سهلاً على اية حياة حاكمة وذلك انها كانت تستطيع بحيش صغير اخاد كل حركة بين رعبتها ولكنها لا تستطيع مثل ذلك الآن فتوسلت الى ادراك ما ربيها بسياسة مبنية على امرين الخوف والجشع . فقامت قائمة صحف الحكومة غير مرة في السنين الاخيرة تنادي بان البلاد على شفا جرف هار . وانت تعلم وانا اعلم والحكومة نفسها تعلم ان هذا النداء كاذب اذ ليس في اوربا مملكة هدوت المانيا منذ سنين كثيرة وليس فيها مملكة تهددها الآن . فاننا نحن النموسيين مرتبطون بل مقيدون منها بمخافة وابطالها منا . وبلوح لنا ان انكلترا مكنتية بمشاغلها وانه لا يحول في صدرها فكرة عدائية . اما فرنسا فآخذة في الاخطاط عسكرياً وكثيرون من اهلها يريدون تناسي الاخذ بالشار . واما روسيا فلم تبد منذ زمان طويلاً الى التوسع في الغرب وهي ليست الآن في مركز يمكنها من التمرش بدولة من الدرجة الاولى ولا يحشى ان تكون في ذلك المركز ولي بعد سنين كثيرة

والحكومة الالمانية تعلم كما تعلم نحن ان سلاح الدول الاخرى الذي نخوف به شعبها ليس سلاح عداء بل سلاح دفاع من المانيا نفسها . ولما اقترحت المانيا تخفيض السلاح ما رأت دولة في اوربا الا وتقبل اقتراحها حولة مسرورة . ولكن جمهور الامة الالمانية ينكر هذه الحقائق لان الحياة الحاكمة تكذبها . وتكذبها ايها في مصلحتها . فلذلك ترى روح الحرب في المانيا باقية حيث هو وترى الامة تلبى مطالب الجيش بلا تردد ولا اسهال

على ان عامل اخوف هذا لا يؤثر في الطبقة التجارية الوسطى تأثيره في الطبقة الدنيا لان اهل الطبقة التجارية اسمى ادراكاً وأكثر ضرراً في متاعب الارض واعرف بالبلاد الاجنبية وابعد عن تصديق كل ما يقال لهم . وهناك اسباب كثيرة تحملهم على التسامح بمخالفهم الحاضرة فانهم يسرون حثيثاً في سبيل التجارة العامة حتى سبقوا التجار الانكليز في كثير من الاسواق وقد جمعوا ثروة طائلة . وقناعتهم هذه جاءت عقبة في سبيل الحكومة فان فئة النبلاء من كبار المالكين يخافون من قيام ارسوقراطية تجارية خوفاً من قيام ديموقراطية اشتراكية ولا سيما ان الاولى اعسر انخداً من الثانية . لذلك بذلت المساعي في السنين الاخيرة لاستجلاب فئة التجار الى جانب الحكومة فصادق الامبراطور بعض زعمائهم ورقام في الحياة الاجتماعية . وجعلت الصحف الرسمية تنشر المقالات مبنية لم وجوب وجود جيش قوي واسطول قوي لتأييد التجارة ومساعدتها على ارتقائها . فوافقوا مبدئياً على هذه الفكرة ولكنهم خالفوا الحكومة في مدى تطبيقها بدعوى ان كل توسع فيها يفضي الى زيادة في الضرائب . ولم يقنعهم قول القائل انه كلما قوت المانيا واشدد ساعدتها زحمت انكثرتا امامها وحلت محلها لانهم كانوا يابقون التجار الانكليز في اسواق انكثرتا نفسها وفي مستمراتها وبقوتهم من غير وسيلة حربية

فلم ينتقل الحكومة الالمانية من هذه الورطة ولم يحل لها هذه العقدة الا انهم الانكليز . فقد قام نفر في انكثرتا اخيراً يمدون بحماية التجارة (ضرب رسوم على الواردات الاجنبية) وبالترتبة التفضيلية (تمييز واردات المستعمرات على غيرها) . ولست افهم تفصيلها تماماً ولا اظن الالمان يفهمونه . وانما اعلم انهم ينهضون كما انهم انا وخلاصة ان تقرر ان ترفقة جمركية تنيل التاجر الانكليزي مزبة عظيمة على غيره في جميع البقاع الخاضعة لانكثرتا واسواقها وكثير ما هي . وفي ذلك خسارة مالية لالمانيا لا تقدر . وقد نقول لي ان الحماية واشغالها من الكميات نداء فارغ لن يعمل به ولن يتحقق . نعم ولكن من يضمن للتاجر الالمانى عدم حدوث ذلك . فهذا ما حدا بالفئة التجارية في المانيا على الانضمام الى الحكومة وتأيدتها في سياستها الحربية والبحرية . ولطالما حشدكم الالمان على ما يرون من اسباب الرفاه والرخاء في انكثرتا لان الحشد خلق فيهم حتى ترى العامل منهم يحمي العمال الانكليز اعتقاداً بانهم احسن منه حالاً . وقد استخدمت الحكومة هذا الطبع لترويج فكرتها وبلوغ قصدتها

وكل مطلع على حقائق الحال لا يترتب في عداه الامة الالمانية اجمالاً لانكثرتا . ولكن

هذا الصدد هو من عمل الحكومة في الأكثر . والحكومة تراقب المدارس والجامعات ولكن لا تهم هل تعلم فيها بوجوب ذلك الصدد . وإنما اعلم ان بعض قومكم يظنون هذه الحقائق تمام العلم ولكن يسكنهم رجالات لا يصدقون إلا ما يقع تحت حسهم وما يطابق حدسهم . وهؤلاء اسراغخداعاً من اجهل طبقات الامة . فانهم يظنون ان التعليم يأتي بشار متشابهة في جميع العالم وان الالماني المتعلم كالانكليزي المتعلم في بساطة قلبه وضميره طويته وفاته ان الطبقة التي تحكم المانيا ليست الطبقة المتعلمة بمعنى هذه الكلمة الواسع بل طبقة ربيت ضمن حدود ضيقة معينة لا مجال للعواطف فيها

ولست معاداة انكلترا غاية الهياة الحاكمة في المانيا بل واسطة لبلوغ غاية . فان هذه الهياة تستعد لحرب عظيمة قد تكون انكلترا غرضها الاول وقد لا تكونه . ولكنها تثقل انكلترا للشعب الالماني معتدية على مصالح المانيا فيمذر الشعب حكومتها على ما تبدي من الالهية في البر والبحر . وغاية الهياة الحاكمة حرب عظيمة تدخلها المانيا بعد ان تستعد تمام الاستعداد للحاربة فرنسا وروسيا بمحتمتين او للحاربة انكلترا وحدها لانكم انتم الانكليز لم تدخلوا التحالفات الاوربية . وهذه الحرب تشهرها المانيا في الظاهر على دولة اجنبية واحدة او اكثر من واحدة ولكنها تكون في الواقع حرباً تشهرها الهياة الحاكمة في المانيا على القوات والعوامل الداخلية التي تريد قلبها وتل غرضها

وبيان ذلك ان الهياة الحاكمة تعتقد — واعتقادها صواب في ظني — بان المانيا تخرج من حرب مثل هذه منصوره وانتصارها يحمل النصر الحربي صاحب الكلمة العليا في اوربا ويحمل الحكم العسكري اسراً لا بد منه على الدوام في المانيا . ولا بد لالمانيا من مهاجمة دولة من الدول بعد سنوات قليلة . وعندى ان تلك الدولة لا تكون انكلترا لانها اذا حاربت انكلترا وصل الفريقان القهار بان الى الحالة التي يملأها الشاء في الشطرنج حيث لا يجد متقدماً ولا متأخراً فيقال انه مات . وبعبارة اخرى لا تستطيع دولة منها ان تال مثالاً من الاخرى وتتصر عليها انتصاراً فاصلاً في حين ان الهياة الحاكمة في المانيا ترمي الى عمل فاصل . لذلك ارى ان المانيا تهاجم فرنسا وروسيا لانها تستطيع ان تنتصر عليها انتصاراً يكون به فصل الخطاب فان فرنسا منخطة عسكرياً وروسيا معتلة . واذا هاجمتها المانيا لزمت انكلترا الحياد

تسألني وما تأثير انتصار المانيا على فرنسا وروسيا في انكلترا فاجيب بان ذلك الانتصار يضمن سيادة الهياة الحاكمة في المانيا سنين كثيرة وهذا ما ترمي اليه حقيقة . ولكنني اعتقد

بان المانيا تعود فتراجع انكثرا عاجلاً أو آجلاً لان انتصارها يزيد قوة المطامع التي عانت الحكومة ما عانت ابشاً وتميزها في صدور الطبقة التجارية . واذ قلت في واية علاقة النمسا واطاليا بهذه السياسة . قات لك اما ايطاليا فلا اعلم الشيء الكثير عن سياستها سوى انها حالفت المانيا واياتا تحمي نفسها منذ ظناً منها ان النمسا ما نسبت اخذ مقاطعتي ليارديا وفنيسيا منها ولا اغتفرتة . وما دامت تجد هذه الحماية في المحالفة فانها تبقى فيها

واما نحن فقد دخلنا المحالفة لاسباب شتى اعظمها خوفاً من روسيا وهو خوف اثبت الایام انه مبالغ فيه على ما يؤكد وفي غير محله على ما يظن . ولكن مع هذا كله لا يزال هناك خوف من وقوع المشاكل بيننا وبين روسيا في البلقان وخصوصاً بعد استقلالنا على البوسنة والهرمك . ومشهور انه منذ عقدت المحالفة الثلاثية اشتد حرج الحالة الداخلية في النمسا . اما مشاكل المانيا الداخلية فاجتماعية وعندنا نحن مشاكل من نوعها ولكن مشكلتنا الكبرى وطنية . فانت مشكلة المجر ومشكلة السلاف من قوما تعقدنا في السنين الاخيرة . ويوصف كوفي غسوتاً تراني اضرب عند الاشارة الى المجر فان دأبهم التظلم من النخاو الحال اننا نضام الشيء الكثير حتى عظم شأنهم في الامبراطورية عظمة لا تلائم عددهم . وبينما نسمعهم يتظلمون من معاملة النمسا لهم تراهم انفسهم يعاملون السلاف والرومان من رعيته معاملة مرسومة باقنطع الظلم . وهم يدعون انهم يقتنوننا ويشأون الجرمان وبيئذون اللغة الجرمانية ولكنهم اهل جهل مطبق فانهم يشدون استقلالاً لم يستطيعوا المحافظة عليه الا بمساعدة روسيا ومعاونة السلاف من رعاياهم ومع ذلك لم يغفروا لروسيا تصديها لهم سنة ١٨٤٩ وهم يعاملون السلاف في بلادهم بالامتهان والظلم . ولو اتحدوا معاً لأحرجوا موقف المنصر الجرمان في النمسا . والجرمان عندنا يعلمون ذلك ويعتدون علينا حتى في عمل ما لا يعود علينا بنفع كثير

بني لي شيء واحد قوله وهو انه اذا خرجت المانيا من حرب اوربية عظيمة والنصر حليفها فلا تسمع بان تقوم في بلدان اوربا قوة للشعب تحمي الآمال السياسية في صدور الطبقات الدنيا . وهذا الامر في طاعتها لان انتصارها يجعلها الآمرة الناهية في اوربا فحرماتشاء وثبت ما تشاء » انتهى

ترجمنا هذا الحديث لاننا رأينا فيه تعليلاً لاستعداد المانيا الكبير لهذه الحرب . ومما يزيد قيمة هذا التعليل ان صاحبه جاهر به قبل الحرب بنحو عشر سنوات وهو دليل على المبتدع وعلى ان الحكومة الالمانية تجري في اعمالها على اساليب محكمة ولو كانت غايتها مخالفة لقتضى امران